المستشرقون والتاريخ الإســـلامى

للدكتور على حسنى الخربوطلى

أستاذ التاريخ الاسلامى المساعد

كثيرا ما يسألنى طلبتى : من هو المستشرق ؟ فهم يقرأون ويسمعون كثيرا عن الاستشراق والمستشرقين ، ويريدون تعريفا علميا يحدد أبعاد صفات المستشرق وليس هناك تعريف واحد محدد ثابت متعارف عليه . ولذا فانى أقول لهؤلاء الطلبة ردا على تساؤلهم : « المستشرق هو عالم غربى يهتم بالدراسات الشرقية » . فلا بد أن يتوافر فى هذا المستشرق الشروط الواجب توافرها فى العالم المتخصص المتعمق ، حتى ينتج ويفيد البشرية والحضارة باتاجه العلمى . ولابد أن ينتمى هذا العالم الى الغرب ، ولو كان هذا العالم يابانيا أو أندونيسيا أو هنديا لما استحق أن يوصف بالمستشرق ، لأنه شرقى بحكم مولده وبيئته وحضارته . وقد تكون الدراسات الشرقية التى يقوم بها المستشرق تاريخا أو فلسفة أو آثارا أو اقتصادا ولكنها ترتبط بالشرق . وليس من الضرورى أن يرحل هذا المستشرق الى الشرق ، ليعيش فيه ، أو ليتطبع بطباعه أو حضارته ، فقد يقوم بدراساته فى جامعته الغربية ، أو فى وطنه . وان كان رحيله الى الشرق يجعل دراساته أكثر فائدة وأقرب الى الواقعية والحقيقة . وليس من الضرورى أن يعتنق هذا المستشرق الاسلام أو أحد الأديان السائدة فى الشرق ، كما ليس من الضرورى أيضا أن يتحدث باللغات الشرقية ، وان كان الالمام بها أو اجادتها يعينه كثيرا فى دراساته وأبحاثه .

ثم يعاود طلبتى السؤال مرة أخرى : وما هى الأهداف التى تدفع بهؤلاء المستشرقين الى الدراسات الشرقية ؟ فأقول لهم : انه من العسير أيضا الرد على هذا التساؤل ، فالأهداف متعددة ومتباينة ومتشابكة ، وهى تختلف فى القرون الوسطى عنها فى العصور الحديثة ، وهى تختلف أيضا فى دولة صديقة للشرق وأهله ، عنها فى دولة غربية أخرى ترمى الى استعمار أرجاء من بلاد الشرق . الى جانب الفروق الفردية ، التى ترتبط بآراء المستشرق الشخصية ، واتجاهاته

العلمية ، ومدى حياده أو تعصبه ، سواء أكان هذا التعصب دينى أو عنصرى أو سياسى أو حضارى ومدى تفهم المستشرق لحياة الشرق ، وحضارته وفلسفته وأديانه وظروف بيئته ، وهى كلها تختلف تماما عن البيئات الغربية التى يعيش المستشرقون بين ظهرانيها .

ولنترك الحديث عن الاستشراق بصفة عامة ، بجوانبه ودراساته المتعددة ، لنخصص الحديث عن جانب واحد ، هو التاريخ الاسلامى ، فنجد تساؤلا جديدا هو : متى بدأ الاستشراق فى دراسات التاريخ الاسلامى ؟ وهناك آراء كثيرة حول البداية ونقطة الانطلاق . فهناك من يربط بين دراسة التاريخ العربى والاسلامى وبداية الأطماع الاستعمارية الأوروبية فى العالمين العربى والاسلامى فى أواخر القرن الثامن عشر ، حينما ضعفت قبضة الدولة العثمانية ، وبدأت الدول الأوروبية تنظر بعين الطمع فى ممتلكات ذلك « الرجل المريض » قبل أن تعلن وفاته وترث تركته . فقد حرصت الدولة العثمانية فى أول عهد حكمها للبلاد العربية والاسلامية ، على أن تسدل ستارا كثيفا يحجب أنظار الأوروبيين عن هذه البلاد ، حتى لا تمتد اليها أصابع الاستعمار ، وان كان هذا الستار قد نجح فترة طويلة فى أن يحمى البلاد العربية والاسلامية من الأطماع الاستعمارية ، الا أنه منع أى لون من ألوان الاتصال الحضارى ، الذى قد يتيح الفرصة للعلماء الأوروبيين لدراسة تاريخ الشرق وحضارته ، كما جعل العرب والمسلمين بمعزل عن حضارة أوروبا ، وقد كانت هذه القارة تجتاز عصور النهضة بعد تخليها عن طابع العصور الوسطى وحضارتها . وهناك رأى يجعل الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨ هى بداية الاستشراق الايجابى الحقيقى ، حينما صحب نابليون بونابرت معه على ظهر أسطوله عددا كبيرا من العلماء ، الذين تخصصوا فى فروع عديدة من المعارف ، كما صحب مطبعة عربية . وقد بدأ هؤلاء العلماء الفرنسيون نشاطهم منذ اللحظة الأولى التى وطأت أقدامهم فيها مصر ، وأنتجوا انتاجا حضاريا ضخما ، لا يزال حتى اليوم منبعا فكريا ، ورغم اخفاق الحملة الفرنسية سياسيا وعسكريا ، الا انها نجحت حضاريا ، رغم قصر مدة بقاء الحملة فى مصر . وتركت الحملة بعد جلائها عن مصر آثارا حضارية عديدة ، كانت أسسا لدراسات كثير من المستشرقين فى العهود التالية . وكانت رغبة كثير من الدول العربية والاسلامية فى التحرر من الحكم العثمانى ، دافعا للعرب وللمسلمين على المطالبة

باقتباس بعض معالم الحضارة الأوروبية التى لا تخالف عقائد العرب أو تقاليدهم. فقد اتصفت فترة الحكم العثمانى بركود حضارى أدى الى جمود فكرى ، فقد كان هذا الحكم العثمانى نكسة شديدة أصابت الحضارة العربية بعد عهود طويلة من الازدهار الحضارى ، وكانت أوروبا فى تلك العهود تعانى من ظلام الجهل والتأخر . ولذا رأى كثير من العرب والمسلمين أن يسيروا فى نفس الطريق الحضارى الذى سار الأوروبيون فيه قبلهم حتى بلغوا ما وصلوا اليه من مظاهر حضارية راقية . وقد ظهر مفكرون مسلمون ، مثل جمال الدين الأفغانى ،ينادون بأن اقتباس الحضارة الأوروبية هى الوسيلة المثلى لرقى العالم الاسلامى والخروج به الى عالم النور والحضارة الزاهرة .

هذه هى بعض الآراء عن بداية الاستشراق ، ولكننا نرى أن الاستشراق قد بدأ منذ قرون كثيرة سابقة للقرن الثامن عشر . بل نرى أن الاستشراق قد أرسى قواعده منذ العصور الاسلامية المبكرة . وفى رأينا أن الاستشراق هو « اهتمام بالدراسات الشرقية » ، وقد يأخذ هذا « الاهتمام » صورة الأخذ أو العطاء . والفكرة الشائعة بين الكثيرين أن الاستشراق هو أن يقدم المستشرقون انتاجهم الفكرى لأبناء الشرق ، ولكننا نرى أن ذلك هو جانب واحد من الاستشراق ، ونرى أن اقدام الغربيين على أن ينهلوا من منابع الحضارة الشرقية هو استشراق أيضا، فهم يجعلون الدراسات الشرقية موضع دراساتهم واهتماماتهم والحضارة فى جوهرها وحقيقتها عالمية ، فهى ملك للأسرة البشرية الكبيرة جمعاء ، والحضارة أيضا أخذ وعطاء ، واقتباس بعض معالم الحضارات العالمية هو فى الحقيقة تجديد لدماء الحضارة المحلية ، ودافعا لها للتطور والتقدم .

وعلى هذا الأساس ، فاننا نرى — دون مبالغة — أن الاستشراق قد بدأ فى أوروبا نفسها ، فى العصور الوسطى الاسلامية ، حينما كان العرب المسلمون يحكمون أرجاء كثيرة فى شبه جزيرة أيبريا (بلاد الأندلس) وفى فرنسا وايطاليا وصقلية وجزر البحر المتوسط.فقد كانت أوروبا قبل الفتوحات العربية والاسلامية تسبح فى دياجير الظلام ، وقد بددت الحضارة العربية الاسلامية هذه الدياجير الحالكة ، وأصبح العرب أساتذة للأوروبيين . فقد أصبح العرب فيما بين منتصف القرن الثامن وأوائل القرن الثالث عشر الميلاديين خملة مشاعل الثقافة والحضارة فى ربوع العالم أجمع ، وكانت الحضارة العربية هى أساس النهضة فى أوروبا .

وقد كتبت اسبانيا العربية الاسلامية صفحة من أروع صفحات تاريخ الحضارة فى القارة الأوروبية فى العصور الوسطى . لقد أقبل الأوروبيون ينهلون من منابع الحضارة العربية ، وقدم طلاب العلم من كل أرجاء أوروبا على بلاد الأندلس يدرسون فى جامعاتها ومعاهدها . أفلا يمكن أن نسمى ذلك استشراقا ؟ فاننا نرى أن الأوروبيين حينما أقدموا على الاقتباس من حضارة الشرق ، العربية والاسلامية ، وحينما أصبحت هذه الحضارة الشرقية هى أساس حضارة القارة الأوروبية ، أصبح الأوروبيون حينئذ مستشرقين . فقد وجد الأوروبيون فى حضارة العرب ما يناسب احتياجاتهم ويسد الفراغ الموجود ، وكانت الحضارة العربية لها من المرونة والواقعية ما يجعلها تناسب الشعوب الأوروبية على اختلاف بلادها وأجناسها وثقافاتها .

وهذا البحث يضيق عن تعديد جوانب استشراق الأوروبيين ، أى اهتمامهم بالحضارة الشرقية ، واقدامهم على التأثر بها والاقتباس منها[١] . ونذكر الآن على سبيل المثال — وليس على سبيل الحصر — أن ابن رشد كان الحجة البالغة للفلسفة فى جامعات أوروبا منذ أوائل القرن الثالث عشر الميلادى ، ولما حاول لويس الحادى عشر تنظيم أمور التعليم فى سنة ١٤٧٣ م أمر بتدريس مذهب هذا الفيلسوف العربى[٢] . ويرى المفكر (أندريس)[٣] أن قيام التأليف العلمى فى أوروبا فى الطب والرياضيات والعلوم الطبيعية مرجعه الى العرب ، ويرى أن روجر بيكون وفتيليون قد استفادا من بصريات الحسن بن الهيثم ، وأن ليوناردو اليزى أخذ عن العرب الجبر ، وأخذ أرنالدو ڤيلانوفا الطب والكيمياء ، كما نهل أعلام الطب الأوروبى من كتب العرب وخاصة الزهراوى . كما استوحى (كلير) كشفه لأفلاك الكواكب الدائرية من كتاب البطروجى . لقد حفظ لنا معجم لاروس برنامج الدراسة فى كلية العلوم فى لندن ، وكان هذا البرنامج يشمل الفلسفة الرشدية ، وعلم الفروسية عند العرب ، وفن الصيدلة المقتبس من مصر ، والجبر وهو من العلوم العربية ، وفنون الموسيقى وتطبيقات مصطلحاتها الشرقية على الموسيقى الافرنجية ، والكيمياء العضوية وهى من وضع العرب .

---

(١) انظر كتابنا (العرب فى أوروبا) وكتابنا (العرب والحضارة) تجد كثيرا من التفاصيل .

(٢) جوستاف لوبون : حضارة العرب (ترجمة عادل زعيتر) ص ٥٦٩

(٣) الفكر الأندلسى ص ٣٣٣

وقد أصبحت هذه الكلية منبعا لتخريج الخبراء والأساتذة فى أوروبا كلها . أفلا يمكن أن نسمى ذلك جميعه استشراقا ؟

لم يكن استيلاء النورمنديين على جزيرة صقلية ، وقضائهم على النفوذ السياسى للعرب ، نهاية لآثار العروبة فى الجزيرة . فقد اعتمد الأمراء النورمنديون على العناصر العربية فى السياسة والاقتصاد ، فقد كانوا على جانب كبير من الحضارة والرقى والخبرة . وكن هؤلاء الأمراء يجيدون اللغة العربية ، التى ظلت احدى اللغات الرسمية فى الجزيرة ، التى تكتب بها البراءات ، وتنقش على النقود ، وقد أحاط الأمير روجر الأول نفسه بأهل المشرق من الفلاسفة والمنجمين والأطباء ، وكان بلاطه أشبه ببلاط خلفاء العرب منه ببلاط أمراء الغرب ، وظلت صقلية أكثر من قرن مملكة مسيحية يتولى وظائفها الكبرى عرب مسلمون[١] . وكان روجر الثانى (١١٣٠ — ١١٥٤) يرتدى الملابس العربية ، ويطرز رداءه بحروف عربية ، كما احتضن الادريسى ، أعظم الجغرافيين ورسامى الخرائط فى العصور الوسطى . أما الامبراطور فردريك الثانى فكان شرقيا فى عاداته الشخصية وحياته الرسمية ، حتى أنه كان يحتفظ بعدد كبير من السرارى . وكان فى بلاطه كثير من الفلاسفة العرب من الشام وبغداد ، بل وكثير من راقصات الشرق . أى أن هؤلاء الأمراء قد أصبحوا فى حياتهم واتجاهاتهم وثقافاتهم مستشرقين ، اذ لا يمكن أن نصفهم بأنهم شرقيون . وهذا الرأى الذى ذكرناه يجب أن يكون موضع الاعتبار ، فلا يجوز لنا أن نعتبر المستشرقين هم فقط الذين درسوا تاريخنا وحضارتنا وقدموا لنا خلاصة دراساتهم وأبحاثهم لنستفيد منها . ولكن يجب أن نضيف الى هذه الفئة ، تلك الفئة السابقة التى استشرقت حينما نهلت من فيض منابع الحضارة العربية ، التى لا تنضب ، وهؤلاء المستشرقين وان كانوا قد أعطوا الشرق بالأمس القريب ، فقد أخذوا عن الشرق فى الأمس البعيد ، والحياة والحضارة — كما ذكرنا — أخذ وعطاء .

كان هذا لونا مبكرا من ألوان الاستشراق . وهناك لون آخر ، كانت دوافعه واتجاهاته تختلف كثيرا عن دوافع واتجاهات اللون الأول ، وان كان اللونان قد شهدتهما العصور الوسطى . فقد شهدت هذه العصور صورا كثيرة للتعصب الدينى ، مما كان من عوامل الاستشراق . فقد أقدم بعض الأوروبيين

---

(١) دكتور فيليب حتى : تاريخ العرب (ترجمة مبروك نافع) ص ٧٨٧

على دراسة العقيدة الاسلامية ، ونظمها ، وحضارتها ، لا للاستفادة منها ، ولكن للكيد لها بدافع من التعصب الدينى الذى كان من سمات ذلك العصر . ومن أبرز المؤرخين الذين تناولوا هذا الجانب من الاستشراق المؤرخ الهندى المسلم (صلاح الدين خودا بخش) فى كتابه الذى قمنا بترجمته بعنوان (الحضارة الاسلامية) . فيرى (خودا بخش)[١] أن سبب هذا التعصب هو سيطرة الكنيسة على أهالى العصور الوسطى المظلمة ، فى وقت أدى انتشار الاسلام وقوته الى شعور أوروبا بالخطر ، وظن البعض أن الاسلام قد أصبح خطرا على المسيحية ، وكان هذا الشعور بالخطر هو الشرارة التى أشعلت النيران ، وبدأت الكنيسة نشاطها المعادى للاسلام . وكانت الكنيسة فى بداية الأمر ، تظن أن انتصار الاسلام ماهو الا سحابة عن قريب تنقشع ، ولكنها سرعان ما أدركت أن انتصاره كان كاملا مطلقا . وبمرور السنوات ، ازداد شعور المسيحيين بزيادة خطر المسلمين على الدول المسيحية ، فبدأوا يبحثون عن وسيلة تستطيع أن تساعدهم لوقف هذا الزحف المستمر للاسلام .

وأصبح الاستشراق هو وسيلة الأوروبيين لمواجهة هذا الخطر الذى اعتبروه مهددا لهم . وكان هذا الاستشراق من أجل الكيد للاسلام . فقد نهضت الكنيسة لتواجه تهديد الاسلام للمسيحية ، واذا أدركنا مدى سيطرة الكنيسة ونفوذها على مسيحى العصور الوسطى ، وتأثيرها على أدب هذه العصور ، فاننا لن ندهش اذا لمسنا ما نال الاسلام طوال العصور الوسطى من هجوم وقدح ، وذلك نتيجة منطقية للظروف السائدة فى تلك العصور[٢] .

ونتيجة هذه السياسة ، قام بعض الأوروبيين المستشرقين ، بترجمة كثير من الكتب العربية والاسلامية ، كما قاموا بترجمة معانى القرآن الكريم . وكانت هذه الترجمات ، التى لم تقم على أساس علمى نزيه ، تحفل بصور مشوهة لتاريخ وحضارة العرب والمسلمين . ومن أبرز هؤلاء المستشرقين المتعصبين بيتر المعروف باسم (Peter the Venerable) ، فقد حمل لواء حملة نشيطة ضد الاسلام ولام المسيحيين على مهادنة الاسلام ، ووضع خطة لمحاربته ، ورأى أن تكون نقطة بداية هذه الحرب هى القرآن ، ولذا تمت ترجمة القرآن الى اللاتينية .

---

(١) الحضارة الاسلامية (طبعة الحلبى سنة ١٩٦٠) ص ٣٧

(٢) المصدر السابق ص ٣٨

وقام بالترجمة رجل انجليزى يدعى (روبرت) ، رحل الى بلاد أسيوية مختلفة حيث استشرق وتعلم اللغة العربية . ثم قام (روبرت) وعالم آخر يدعى (هرمان) بتكليف من (بيتر) ، بترجمة عدة كتب عربية الى اللغة اللاتينية . وكانت هذه الترجمات أساسا لكتب ألفها (بيتر) وبدأ بها عهدا جديدا للصراع الدينى الموجه ضد الاسلام ، وكانت مؤلفاته هى المنبع الذى استقى منه كتاب العصور الوسطى فى حملاتهم ضد الاسلام ، والرسول ، والحضارة العربية الاسلامية .

وانصافا للحق ، نقول أنه ظهرت حركة مضادة أخرى ، تواجه حملات التعصب الدينى التى أشرنا اليها . فقد برز من بين الأوروبيين مستشرقون أبدوا صراحة سخطهم على هذه الحملات الهدامة ، وأنصفوا الاسلام والمسلمين ونذكر منهم على سبيل المثال (ثيتمار Theitmar) الذى امتدح الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأشاد برجته وانكاره لذاته وعطفه على الفقراء والضعفاء . كما برأ (أوتو) الاسلام مما اتهمه به الكتاب المسيحيون وأكد فى عزم أن الاسلام دين التوحيد وأنه يعترف بالمسيحية وسائر الرسل . أما الواعظ (نيكلدوس) الذى عاش فى أواخر القرن ١٣ وفى مطلع القرن ١٤ فقد أمضى سبع سنوات بين المسلمين ودرس فيها القرآن عن قرب ، وأشاد بما حث عليه الاسلام من فضائل ، بل طلب من اخوانه فى المسيحية أن يتخذوا من الاسلام وصفات المسلمين مثلا عليا لهم ، وأبدى اعجابه بدراسة القرآن فى مدارس بغداد ، وذكر أنه عاش ثلاثة أشهر بين سائقى الابل فى الصحراء الذين لم ينسوا فى أوقات الشدة والضيق أن يؤدوا فرائض الصلاة ، وأبدى اعجابه بالوضوء الذى يسبق الصلاة ، كما أثنى على نظام الزكاة ، وأشاد بكرم العرب وحسن ضيافتهم ، وغير ذلك من محامد العرب[1] .

واذا تركنا الحديث عن بداية الاستشراق ، نصل الى أهداف الاستشراق وغايات المستشرقين من استشراقهم . ويمكننا أن نذكر أنه هناك ثلاثة أهداف رئيسية يتفرع منها أهداف ثانوية . وأول هذه الأهداف الرئيسية الثلاثة ، هو الهدف الدينى الذى أشرنا اليه آنفا ، حينما تحدثنا عن هؤلاء الأوروبيين الذين استشرقوا للاساءة الى التاريخ العربى والحضارة الاسلامية ، وقد شهدنا كثيرا منهم طوال العصور الوسطى . أما الهدف الثانى فهو البحث والدراسة ،

---

(١) خودابخش : الحضارة الاسلامية (من ترجمتنا) ص ٥٩ — ٦١

المنزهين عن جميع الأغراض ، سواء سياسية أو دينية ، فقد رأت فئة من المستشرقين أن الدراسات الشرقية عامة ، والتاريخ الاسلامى خاصة ، منبعا فياضا ، وأرضا خصبة ، وميدانا فسيحا لدراساتهم وأبحاثهم . وخاصة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين حينما كان العرب والمسلمون لا يزالون فى أول طريقهم الى النهضة واليقظة ، فرأى هؤلاء المستشرقين أن يسدوا الفراغ القائم .

أما الهدف الثالث فهو سياسى ، وقد اتخذ صورا مختلفة . أما الصورة الأولى ، فهى تخدم السياسة الاستعمارية التى انتهجتها بعض الدول الأوروبية فى الشرق العربى والاسلامى . فقد قام غزو حضارى وفكرى الى جانب الغزو العسكرى والسياسى ، وأصبح الاستشراق وسيلة من وسائل الاستعمار فى العصر الحديث . وكانت رسالة العلماء الفرنسيين الذين صحبوا بونابرت ظاهرها الاهتمام بحضارة الشرق وتراثه العلمى ، وباطنها ارساء قواعد النفوذ الفرنسى فى الشرق العربى . ولم يكن المنشور العربى الذى وجهه نابليون الى الشعب المصرى ، أو استعمال اللغة العربية فى الدواوين الحكومية ، أو الاهتمام بالأزهر وعلمائه ، الا وسيلة من وسائل تدعيم الاحتلال الفرنسى لمصر ، وخدعة للشعب العربى فى مصر والشام ، وقد فطن المصريون الى هذه الحقيقة فكانت ثوراتهم ضد الفرنسيين .

ومن هذه الصور ، رغبة هؤلاء المستشرقين فى بهر أنظار أهالى الشرق بمدى تفوق حضارة الغرب ، واثبات حاجة الشرقيين الى جهود الغربيين ، حتى يصبح الشرق دائما مدينا من الناحية الفكرية والحضارية للعالم الغربى ، مما يمهد لنفوذ سياسى أوروبى فى الشرق ، يتفاوت فى اتساعه ونطاقه . ومن هذه الصور أيضا محاولة ربط الشرق ببعض الدول الأوروبية برباطات فكرية ، حتى تدور كل دولة شرقية فى فلك دولة غربية ، ولذا تنافست دول أوروبا حول تخصيص عدد كبير من علمائها ليصبحوا مستشرقين متخصصين فى الدراسات الشرقية ، وخاصة العربية والاسلامية . وأصبحت أبحاث المستشرقين فى القرن التاسع عشر تمثل فى الحقيقة الصراع الدائر بين الدول الأوروبية حول مناطق النفوذ السياسى والاقتصادى فى الشرق . وكما كانت الدول الأوروبية تمنح بعض الشرقيين منحا دراسية للدراسة فى الجامعات الغربية ، أصبحت أبحاث المستشرقين هى الوسيلة التى يصل بها الفكر الأوروبى الى الأوطان الشرقية ، أى أنه كان الى جانب

استيراد الشباب الشرقى الى العالم الأوروبى ، كان هناك تصدير كتب المستشرقين الى أرجاء الشرق ، كتتمة للهدف السياسى الذى ترمى اليه دول أوروبا . وهى كتب موضوعاتها عربية واسلامية ، ولكن فى أسلوب وثوب أوروبيين ، الى جانب الاهتمام بالاخراج ونوع الورق والطباعة الفاخرة ، مما أتاح الفرصة للشرقيين ليقارنوا بين هذه المطبوعات الأوروبية الأنيقة ، والكتب العربية القديمة الصفراء ، التى تنهج منهجا عتيقا ، فى التبويب والدراسة والعرض . كما تمكن الشرقيون من شراء أبحاث المستشرقين بأثمان زهيدة ، كما أمكنهم الاطلاع عليها بالمجان فى المكتبات العامة التى أنشأتها هيئات أجنبية ، علمية أو سياسية ، فى بلدان الشرق العربى .

وهناك فئة من المستشرقين فريدة فى نوعها وتتميز عن الفئات السابقة ، وهى فئة المستشرقين الهواة ، الذين يهوون الاستشراق ويتخذونه مهنة كسائر المهن الحرة . يمارسونها فى معاهد الغرب ومكتباته ومطابعه ودور نشره ومجلاته ، وبعضهم من ذوى اليسار ، فانصرفوا الى التحقيق والترجمة والتصنيف فى تراثنا الذى أمسى من تاريخ العلوم والآداب والفنون ، لا مطمع لدولهم فيهم أو اقبال مواطنيهم عليهم ، فلا ثراء لهذه المهنة ولا أمل لصاحبها فى ثراء[1] .

وهكذا عرفنا الاستشراق ، وتحدثنا عن تاريخه وأهدافه . ولنا أن نتساءل : الى أى مدى بلغ الاستشراق فى النصف الثانى من القرن العشرين ؟! وأستطيع أن أجيب بأن الاستشراق لايزال قائما ، ولكنه تضاءل حتى أصبح فى دائرة محدودة . فقد قل عدد كتب وأبحاث المستشرقين فى الدراسات العربيةوالاسلامية، وخاصة فى التاريخ الاسلامى . ويرجع ذلك الى النهضة الفكرية التى شهدها العالم العربى فى مطلع القرن العشرين وأتت ثمارها فى النصف الثانى من هذا القرن ، فقد ظهر من بين العرب والمسلمين علماء أفذاذ بزوا المستشرقين فى دراساتهم المنهجية وأبحاثهم الجامعية ، وأغنونا عن تلك البضاعة الأجنبية المستوردة ، وقد سد علماؤنا العرب الفراغات التى كان يملؤها المستشرقون بدراساتهم ، حتى أصبحنا فى غنى عن جهود هؤلاء المستشرقين . وقد أدرك المستشرقون هذه الحقيقة ، فاتجهوا بأبحاثهم الى تاريخ وتراث الدول الافريقية

---

(١) نجيب العقيقى : المستشرقون جـ ٣ ص ١١٤٩ (دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٦٥) .

والأسيوية التى استقلت حديثا والتى لا تزال تقطع أول شوط فى طريق الحضارة والنهضة الفكرية ، والتى لم يظهر من بين أبنائها علماء يكفون تغطية ميادين الدراسات المحلية ، مما يجعل هذه الدول النامية فى حاجة ماسة الى جهود المستشرقين .

ولكن دول الغرب لم تتوقف عن اهتماماتها بتاريخنا وحضارتنا ، فالجامعات الأوروبية والأمريكية تنشىء أقساما ومعاهدا للدراسات العربية والاسلامية ، كما تنشىء كراسى فى مجالس كلياتها لهذه الدراسات ، وتقدم المنح الدراسية للطلبة العرب والمسلمين ، وتساهم فى الكشف عن الآثار التاريخية فى العالم العربى ، وتزخر المتاحف والمكتبات الأوروبية والأمريكية بآلاف من الكتب العربية الى جانب الكتب الأفرنجية التى تتناول تاريخ العرب وحضارتهم ، كما تصدر بعض الدول الأوروبية عديدا من المجلات والنشرات العربية ، تجمع بين الدراسات العلمية والدعاية السياسية .

ونتساءل أيضا : هل اتصف المستشرقون جميعا بالحياد التاريخى ؟ وهل أنصفوا تاريخنا العربى والاسلامى ؟ وللاجابة على هذا التساؤل يمكننا أن نقسم المستشرقين الى ثلاث فئات متميزة ، تتفاوت بين الانصاف والاجحاف .

أولا : فئة من المستشرقين أنصفوا تاريخ الاسلام والعروبة ، وقدموا لنا دراسات تتميز بالعمق والتفهم . وقد بذل هؤلاء المستشرقين جهودا كثيرة فى تعلم اللغة العربية ، والاطلاع على تراثنا العربى ، وفلسفة هذا التراث ، واستخدموا المنهج العلمى الغربى فى دراستهم للتاريخ الاسلامى . ويتميز هؤلاء المستشرقين بالتخصص ، فقد اختص كل واحد منهم فى فرع من فروع الدراسات العربية والاسلامية ، وتعمق فيه ، وقدم لنا انتاجا قيما خصبا .

وفى هذه الفئة يقول المرحوم الدكتور زكى محمد حسن : الملاحظ بوجه عام أن ما كتبه المستشرقون من الدراسات فى بعض عصور التاريخ الاسلامى أو مسائله الجزئية أعمق من كتبهم الشاملة . واذا كان للمراجع العربية والفارسية القديمة المقام الأول والأساسى فى دراسة التاريخ الاسلامى ، فمن الانصاف أن نعترف بأننا لم نحسن الافادة من تلك المراجع الأصلية حتى اتصلنا بالغرب ، واستطاع الرعيل الأول من المؤرخين المسلمين المحدثين أن يأخذوا من المستشرقين كثيرا من أساليب البحث العلمى الدقيق .

وأشاد الدكتور صالح أحمد العلى[١] بجهود بعض المستشرقين ، فقال : ابان القرن التاسع عشر ، ظهر عدد من الباحثين فى مختلف الأقطار الأوروبية ، امتاز بعضهم بدقة البحث واتقان الطريقة العلمية وتطبيقها على الدراسات العربية ، وبشمول النظر واتساعه والتطرق الى جوانب متعددة من الحضارة الاسلامية ، وقد قاموا بنشر عدد كبير من كتب التاريخ العربية ، وكتب أخرى تتناول جوانب كثيرة من الحضارة العربية ، نشرا علميا دقيقا ، كما اهتموا بجمع المواد الأولية ، والوثائق الأصلية لدراسة التاريخ ، من نقود وأوراق بردى ، فضلا عن الحفريات التى قاموا بها فى عدد كبير من مراكز الحضارة الاسلامية ، يضاف الى ذلك أن المستشرقين بحكم نشوئهم فى أوروبا حيث تقدمت دراسة التاريخ بأساليبها وآفاقها ، كانت لهم نظرة أوسع ، فاهتموا بجوانب متعددة من التاريخ الاسلامى ، وأظهر بعضهم عمقا فى التحليل واصابة فى التعليل ، ونضجا فى الأحكام .

ان جهود المستشرقين المؤرخين فى نقل كتب التاريخ العربى الاسلامى أو تحقيقها ونشرها نشرا علميا مع الفهارس الدقيقة ، مما لا ينكره الا جاحد . وهذه الكتب التى حققوها ونشروها تدل على جهد عظيم ، وصبر على العمل ، ودقة فى الفهرسة[٢] .

تحدث الأستاذ نجيب العقيقى[٣] عن هذه الفئة من المستشرقين الذين أنصفوا الاسلام ، فقال عنها : وفئة أنصفت الاسلام ، وان لم تدن به ، قولا وعملا وكتابة فلم يؤخذ عليها هفوة على كل ما دبجته فيه ، ومنها ما ذهب به اخلاصه الى اعتناقه من أمثال : بوركهارت ، وكرنكوف ، وزونستين ، وشنيتسر ، ودينه ، وفلورى ، وميشو ، ومارمادروك ، وفيلبى ، وليوبولد فايس ، وجرمانوس ، وغيرهم .

ثانيا : فئة تعمدت الاساءة الى تاريخنا الاسلامى وحضارتنا العربية . ولكنها فى نفس الوقت قدمت لنا دراسات مستفيضة دسمة . وكانت الاساءات التى تعمدوها مستترة مخفية ، قد تكون سطورا قليلة وسط صفحات عديدة ،

---

(١) فى مقدمة كتاب (علم التاريخ عند المسلمين) الذى ترجمه عن (فرانز روزنثال) ، ص هـ (طبعة فرانكلين سنة ١٩٦٣) .

(٢) محمد عبد الغنى حسن : علم التاريخ عند العرب ص ٢١٠ (مؤسسة المطبوعات الحديثة سنة ١٩٦١) .

(٣) المستشرقون جـ ٣ ص ١١٦١

ولا يستطيع الكشف عنها سوى قارىء فطن لبيب أو قارىء متخصص ، وأستطيع أن أشبه هؤلاء المستشرقين بمن « يدس السم فى العسل » ، فهم يقدمون لنا أبحاثا حلوة ممتعة ، تحفل بقطرات من سم زعاف ، مما يشوه الأفكار ويبلبل العقول ، وقد يزعزع الايمان عند بعض الضعفاء أو عند أنصاف المتعلمين .

وفى مقدمة هذه الفئة من المستشرقين الأب (لامانس) الذى وضع عديدا من الكتب باللغة الفرنسية ، تتميز غالبا بالعمق والاجادة ، وهو يتبع فيها المنهج العلمى التاريخى ، ويتقن التحليل والاستنتاج والتعليق ، ويفلسف التاريخ الاسلامى . ولكن فى ثنايا كتبه سهام مسمومة يوجهها الى العقيدة الاسلامية ، والى الرسول عليه الصلاة والسلام ، والى تاريخ العرب وحضارتهم وخلفائهم وزعمائهم .

ومن هؤلاء المستشرقين أيضا (ديلاسى أوليرى) الذى يصفه الدكتور تمام حسان[١] بأنه « من بين غلاة المستشرقين الذين يتلمسون فى ثقافة العرب ما يرجون أن يردوه لأدنى شبه الى ثقافة الاغريق أو الرومان ، فالفقه الاسلامى فى رأيه آخذ عن القانون الرومانى ، لأن العرب وجدوا فى الأقاليم الرومانية المفتوحة أوضاعا فقهية أقروها ، والفلسفة الاسلامية فى نظره طور من أطوار الفلسفة الهيلينية ، لأن العرب بحثوا المشاكل الفلسفية التى بحثها الفلاسفة الهلينيون ، والتصوف الاسلامى ذو روافد من الأفلاطونية الحديثة لأنه اتفق معها فى بعض الآراء ، بل ان العقيدة الاسلامية نفسها تشتمل على عناصر هيلنية ، لأنها ارتضت بعض ما ارتضته المسيحية أو الفلسفة الهيلنية » .

ومن الطريف أن أحد المستشرقين يعترف باحتراف بعضهم الاساءة الى الاسلام ، ويحاول أن ينفى الاتهام عن الباقين ، فيقول (ستورى) فى هذا الصدد : « انكم فى البلاد العربية تعتقدون أن المستشرقين متعصبون على الاسلام . وما أرى هذا الاعتقاد صحيحا دون قيد . نعم ، ان هناك فريقا تعصب بحكم صنعته التى يرتزق منها ، ولكن هذا الفريق معروف عندنا كما هو معروف عندكم ، وليس من الانصاف أن يشمل الحكم جميع الباقين »[٢] .

---

(١) فى مقدمة ترجمته العربية لكتاب (الفكر العربى ومكانه فى التاريخ) ص ٨ (طبعة وزارة الثقافة سنة ١٩٦١) .

(٢) دكتور اسحق موسى الحسينى : علماء المشرقيات فى انجلترا ص ١٤ (القدس ١٩٤٠) .

وان كانت العصور الوسطى قد شهدت العديد من الكتب التى ألفها مستشرقون متعصبون ، كان كل سطر فى صفحاتها قدحا فى الاسلام وتاريخ المسلمين ، فقد اختفى مثل هذا النوع من الكتب التى تحوى هجوما سافرا مركزا ، فلجأ المستشرقون المجحفون المحدثون الى طريق الالتواء والتأويل، واستتروا وراء حرية الفكر ، واستخدموا ألفاظا معتدلة للتعبير عن اتهامات ظالمة واساءات بالغة .

ثالثا : فئة أساءت الى تاريخنا الاسلامى ووقعت فى الخطأ والمحذور ، ولكن بدون قصد أو نتيجة عدم الملم تام باللغة العربية ، أو جهل بحقيقة الاسلام ، أو عدم تفهم للبيئة العربية والتقاليد الاسلامية . وان كنا ندين هذه الفئة أيضا ، الا أن حكمنا عليهم يكون أخف وطأة من حكمنا على الفئة الثانية من المستشرقين التى أتنوت الاساءة الى التاريخ الاسلامى حينما أمسكت بأقلامها لدراسته .

ويجد أحد الكتاب[1] لهذه الفئة بعض العذر فيقول : وهناك بعض مآخذ تعود الى عدم اتقانهم لقراءة النص ، تبعا لعدم اتقانهم اللسان العربى ، وذلك فى حالات قليلة ومستدركة ، ولكنها لا تنقص بحال من قيمة عملهم الجليل فى هذا الميدان .

كما يدافع المستشرق (ستورى) أيضا عن هذه الفئة من المستشرقين الذين أخطأوا بدون قصد ، فيقول : ان الذين خدموا العربية كثيرون ، وقد حاولوا أن يكونوا منصفين فى أبحاثهم بقدر ما يمكن للانسان أن يكون منصفا ، وان أخطأ باحث من غير قصد فليس السبيل الى تقويمه أن يجرح ويقذف ، ثم انا نبحث لغات بعيدة عنا ، ونخوض فى موضوعات فى غاية الدقة ، مستعينين بالأساليب الحديثة ، وكما أنه يشفع للطبيب الجراح — ان أخفق فى عملية جراحية — حسن نيته ، كذلك يجب أن يشفع للباحث طيب طويته وحرصه على الوصول الى النتائج دون تعصب »[2] .

ولننتقل الآن الى جانب آخر من حديثنا عن المستشرقين والتاريخ الاسلامى ، فنحاول تقييم جهود هؤلاء المستشرقين فى مجالات الدراسات التاريخية الاسلامية.

---

(١) محمد عبد الغنى حسن : علم التاريخ عند العرب ص ٢١٠

(٢) الحسينى : علماء المشرقيات فى انجلترا ص ١٤

ولاشك أن أبرز جهودهم هو اخراج تراثنا العربى والاسلامى الى النور ، وقيام المستشرقون بتحقيق ونشر مصادر التاريخ الاسلامى ودراسات المؤرخين العرب الأقدمين . كما قام المستشرقين بدراسة عميقة واعية لهذه المصادر الأولية ، وانتهجوا فيها غالبا مبدأ الحياد التاريخى . فنحن نعلم ما كان بين المفكرين المسلمين من نزاع وصراع وعصبية ، نتيجة انقسام المسلمين الأولين الى فرق ومذاهب متعددة ، وقد انعكست هذه الانقسامات على كثير من مصادرنا التاريخية القديمة ، يظهر فيها الصراع الذى كان دائرا بين الهاشميين والأمويين ، أو بين السنيين والشيعة ، أو بين الشيعة والخوارج الى جانب تيارات الشعوبية والزندقة التى أثرت فى الفكر العربى فى العصر العباسى الأول .

ولكن المستشرقين طبقوا منهجهم العلمى على تراثنا ، وقد خلت نفوسهم وقلوبهم وعقولهم ، قدر استطاعتهم ، من آثار تلك العصبيات والمنازعات والأهواء[١] . مما جعل دراساتهم محايدة بعيدة عن تلك الصراعات الفكرية والمذهبية القديمة . وقام هؤلاء المستشرقين بدراسة التراث الانسانى ، وأجادوا اللغات السامية والآرية ، وشملت دراساتهم الأديان والفنون والآداب والعلوم ، وحققوا أصول هذا التراث وتأثره وتفاعله وتطوره وأثره . ففى دراستهم لتاريخ الفلسفة رجعوا الى الأصول اليونانية والسريانية والعربية والعبرية واللاتينية وسائر اللغات الغربية . كما درسوا علم الكلام لدى جميع الأمم على مر العصور ، وقارنوا بين الفقه الاسلامى والقوانين الدينية والمدنية العالمية . ورجعوا فى دراساتهم للحروب الصليبية الى المؤرخين العرب والأرمن واليونان واللاتين . وتحدثوا عن أثر الحضارة الاسلامية فى الفكر الأوروبى ، ومساهمة الثقافة العربية فى التراث العالمى[٢] .

وربما تكون دراسات المستشرقين حول الفرق الاسلامية هى خير ما يرجع الباحث اليه ، فقد وقفوا موقفا حياديا من صراع أصحاب هذه الفرق . وقد أشاد الدكتور تمام حسان بجهود المستشرق (ديلاسى أوليرى) فى دراسته للفرق الاسلامية ، فقال : ولكون (أوليرى) مستشرقا ينتمى الى بيئة ، لا هى بالاسلامية ولا العربية ، يثير فى نفوسنا دواعى الانتباه حين نقرأ له رأيه فى الفرق

---

(١) نجيب العقيقى : المستشرقون جـ ٣ ص ١١٤٦
(٢) المصدر السابق جـ ٣ ص ١١٤٣

الاسلامية المختلفة . بل انه يثير انتباهنا حين يتكلم عن أعلام الفكر العربى بروح ليس لها موقف تقليدى من هؤلاء الأعلام ، فهو يعرض هذه الفرق وهؤلاء الأعلام من زاوية لا تتفق كثيرا لأتباع هذه الفرق والمعجبين بهؤلاء الأعلام ، ولأن المسلم منا ينظر بعين العطف الى أبناء مذهبه فى الدين ، وبعين الاشفاق الى أبناء المذاهب الأخرى ، ومن ثم يصعب عليه عند ارادة البحث العلمى الذى لا يعرف العطف والاشفاق ، أن يتخذ لنفسه موقفا خلوا من أى منهما[١] .

ومما يميز جهود المستشرقين تخصص كل منهم فى فرع معين من فروع التاريخ الاسلامى ، مما يزيد دراساتهم عمقا وأهمية وفائدة . ومن الذين تخصصوا فى تاريخ العرب قبل الاسلام المستشرقون : جويدى ، وأوليرى ، وفلهوزن ، والأب لامانس ، ومرجوليوث ، وديلافيدا ، وموريتز ، وجروهمان ، وديسو ، ونولدكه . ومن الذين كتبوا فى سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام : درمنجهم ، وارفنج[٢] ، وهوير ، وبودلى . ومن مؤرخى الفتوحات الاسلامية : بيكر ، وبتلر ، ودى جويه ، وفلهوزن ، وكانار ، وكايتانى ، وجب ، ولوران ، وأميلينو . ومن المتخصصين فى تاريخ الدولة الأموية : فان فلوتن ، وبل ، وبيكر ، وجابريللى ، وبرييه . ومن المستشرقين الذين اهتموا بالعصر العباسى : أمدروز ، وفريتاج ، وشوارتز ، وهوروفيتس ، وبالمر ، ولسترانج ، وفازيليف ، ونولدكه ، وبوفا ، وغيرهم[٣] .

واهتم المستشرقون أيضا بدراسة أسس علم التاريخ الاسلامى ومناهجه ، ومن أوائل المستشرقين الذين بحثوا فى هذا الموضوع المستشرق الألمانى (فرناند وستنفلد) الذى نشر بحثه عن الكتابة التاريخية عند المسلمين سنة ١٨٨٢ م ، ثم تلاه (بروكلمان) فخصص للمؤلفات التاريخية صفحات كثيرة فى كتابه عن تاريخ الأدب العربى ، كما طبع الأستاذ (ديفيد مارجوليوث) سنة ١٩٣٢ م المحاضرات التى ألقاها فى جامعة كلكتا عن التاريخ العربى ، ونشر (السر هاملتون جب) مقالة عن التاريخ عند المسلمين فى الطبعة الرابعة عشرة

---

(١) من مقدمة للدكتور تمام حسن فى ترجمته لكتاب (الفكر العربى ومكانه فى التاريخ) ص ١٤

(٢) قمنا بترجمة كتاب ارفنج ونشرته دار المعارف فى طبعتين متواليتين .

(٣) عبد الغنى حسن : علم التاريخ عند العرب ص ٢٠٩ — ٢١٠

من دائرة المعـارف البريطانية وبحثا قيما عن تطور علم التاريخ عند المسـلمين فى ملحق دائرة المعارف الاسلامية ، الى جانب عدد كبير من البحوث عن المصادر التاريخية تناولها كثير من المستشرقين ، وخاصة فى مقـدمات بحوثهم عن بعض موضوعات أو فترات التاريخ الاسلامى . ومن هذه الأبحاث ما كتبه (بارتولد) فى مقدمة كتابه عن (تركستان حتى فتح المغول) ، وبحث (كلود كاهين) فى مقدمة كتابه عن (سورية فى فترة الصليبيين) . ومن أبرز دراسات المستشرقين فى علم التاريخ الاسلامى ، كتابان للمستشرق (فرانز روز نثال) ، وهما (مناهج البحث العلمى عند المسلمين) وكتاب (علم التاريخ عند المسلمين)[1] .

وفى الختام نقول أننا لا نستطيع أن نجحد جهود المستشرقين ، ولا يمكن لنا أن ننكر فضلهم ، ولا يجوز لنا أيضا أن نستغنى عن دراسـاتهم فى أبحاثنـا العربية ، حتى نستفيد من هذه الجهود وحتى نطلع على وجهات النظر الغربية فى موضوعات تاريخنا العربى الاسلامى . وخاصة بعد أن أصبح القارىء العربى على جانب كبير من الوعى الفكرى والنضوج العلمى ، مما يجعله قادرا على تقييم أبحاث المستشرقين تقييما حقيقيا صادقا ، كما يمكنه من أن يميز بين الغث والسمين، وبين وجوه الانصاف والاجحاف . وقد أصبح القارىء العربى المعاصر يستطيع أن يحكم على دراسات المستشرقين بفضـل ما ظهر من أبحاث قدمها لنا علماء وأساتذة عرب متخصصون ، مما أوجد مجالا فسيحا لعقد دراسات مقارنة بين اتجاهات المستشرقين وآراء المفكرين العرب للوصول الى الحقائق التاريخية .

---

(١) انظر مقدمة كتاب (روزنثال) للدكتور صالح العلى ص هـ — و .